جامعة الإسكندرية
كلية التربية بدمنهور
قسم علم النفس التربوي

المدخل الإيكولوجي في تفسير سوء معاملة الأطفال:
استخدام جديد للنماذج العلمية في البحث والتطبيق

An ecological approach to child abuse: a creative use of scientific models in research and practice

د. محمد السعيد أبو حلاوة
مدرس الصحة النفسية وعلم نفس الأطفال غير العاديين
كلية التربية بدمنهور، جامعة الإسكندرية

المكتبة الالكترونية
أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة
www.gulfkids.com

عناصر الورقة

م	العناصر	الصفحات	
	* ملحص الورقة.		
أولاً	مقدمة.		
ثانيًا	الإطار العام للورقة:		
ثالثًا	طبيعة النماذج النظرية في البحث العلمي.		
رابعًا	رابعاً أهداف ووظائف النماذج العلمية.		
خامسًا	النماذج النظرية المفسرة لسوء معاملة الأطفال		
سابعًا	ما هو النموذج الإيكولوجي؟		
ثامنًا	استخدامات النماذج الإيكولوجية في البحث العلمي في مجال سوء معاملة الأطفال.		
تاسعًا	تأثير النموذج الإيكولوجي علي ممارسات وقاية الأطفال من سوء المعاملة.		
عاشرًا	هل النماذج الإيكولوجية في تفسير سوء المعاملة والإهمال كافية؟		

المدخل الإيكولوجي في تفسير سوء معاملة الأطفال: استخدام جديد للنماذج العلمية في البحث والتطبيق[1]

ملخص: Abstract

حدث خلال الأربعين سنة الماضية تقدماً مذهلاً في مجال تفهم ما يعرف بالتشخيص السببي لظاهرة سوء معاملة وإهمال الأطفال، وكذلك في مجال تفهم العمليات الكامنة في هذه الظاهرة والديناميات التي تحدث بمقتضاها. إلا أن هذا التفهم انحصر في إطار نموذجين نظريين أساسيين انطلقت منهما دراسات وبحوث إساءة معاملة وإهمال الأطفال خلال الفترة السابقة وهما النموذج السيكودينامي؛ والنموذج الاجتماعي.

ويلاحظ في الآونة المعاصرة وجود محاولات من الكثير من المنظرين في المجال لدمج النموذجين في إطار تصور نظري أكثر شمولاً فيما يعرف اصطلاحاً في الوقت الحاضر بالمدخل أو النموذج الإيكولوجي، وفيه تطرح ظاهرة سوء معاملة وإهمال الأطفال في إطار السياق العام لبيئة التفاعل التي يعيش فيها الأطفال بمستوياتها المتعددة.

ويعد النموذج الإيكولوجي في الوقت الحالي أكثر النماذج التفسيرية شمولاً وفائدة في تفسير وتفهم سوء معاملة وإهمال الأطفال: محدداتها، دينامياتها، تداعياتها، وطرق التدخل الوقائي والعلاجي.

أكثر من ذلك يقدم هذا النموذج إطاراً نظرياً مرجعياً يمكن من خلاله توجيه البحوث العلمية في المجال وفي توجيه ممارسات الوقاية والعلاج في نفس الوقت.

وتعد الورقة التي كتبها بيتر سيدبوثام 2001 ونشرت في العدد الثاني من المجلد العاشر لمجلة مراجعات سوء معاملة الطفل 2001 من الأوراق العلمية الجادة التي تتناول المدخل الإيكولوجي في تفسير ظاهرة سوء معاملة وإهمال الأطفال بصورة تفصيلية عميقة؛ إذ يستهل هذه الورقة بوصف طبيعة واستخدام النماذج العلمية في البحوث والممارسات التطبيقية، ثم يوضح المستويات المختلفة التي تتوزع عليها النماذج العلمية، وهي ما يعرف بالنماذج العاملة، والمداخل أو الأطر التصورية، ووجهات النظر العامة.

ويستمر في وصف كيف تستخدم النماذج في تفسير سوء معاملة الأطفال بالتركيز أساساً علي ثلاث نماذج نظرية هي [النموذج السيكودينامي؛ النموذج السوسيولوجي؛ والنموذج الإيكولوجي]، ثم يعرض بصورة تفصيلية للمدخل الإيكولوجي من حيث افتراضاته، مكوناته، استخداماته فيما يتعلق بالبحث والتطبيق، وحدوده. وينهي الورقة ببعض التوصيات والمقترحات العملية التي قد تفيد القارئ في تطبيق هذا الفهم علي المستوي الشخصي والمهني.

[1] Sidebotham,P. (2001).An ecological approach to child abuse: a creative use of scientific models in research and practice.**Child Abuse Review**, Volume 10, Issue 2 , PP. 97 – 112.

أولاً مقدمة: An Introduction

تبدأ هذه الورقة بوصف طبيعة واستخدامات النماذج العلمية في كل من البحث والممارسة، وذلك بتوضيح ثلاث مستويات للنماذج العلمية: النماذج العاملة Working Models ، الأطر النظرية Paradigms،ووجهات النظر العامة Worldviews ، ثم تواصل الورقة توضيح كيف تستخدم النماذج العلمية في دراسة وتفسير سوء معاملة الأطفال بالتركيز علي ثلاث مداخل نظرية عامة هي: المدخل الاجتماعي، المدخل السيكودينامي، والمدخل الإيكولوجي).
ثم تصف الورقة المدخل أو النموذج الإيكولوجي بالتفصيل في إطار مستويات التحليل الأربع التي يتضمنها. وتناقش الورقة كذلك استخدامات وحدود النموذج الإيكولوجي في إطار علاقته بكل من البحث والممارسة. وأخيراً تختتم الورقة ببعض التوصيات المفيدة للقارئ في تفهم ظاهرة سوء معاملة الأطفال.

ثانياً الإطار العام للورقة:

يؤكد في الإطار الجديد لقياس احتياجات الأطفال والأسر (DoH,1999) علي ضرورة انطلاق القياس من تصورات المدخل الإيكولوجي. وعندما سألت زميلة لي عن ماذا يعني ذلك؟ قالت بعد دقيقة من التفكير العميق أن ذلك قد يتشابه مع ما يعرف بمؤتمر دراسة الحالة. وعلي الرغم من أن ما صرحت به زميلتي قد يكون مفهوما ،إلا أنه لا يعطي الدلالة التامة لكل مكونات هذا المدخل.
وقد يقصد بالإطار المرجعي الخاص بالتصور الإيكولوجي في القياس كإطار نظري مرجعي " تفهم الطفل في إطار السياق الأسري والمجتمعي والثقافي الذي يعيش فيه ويتفاعل معه" ويكمن وراء هذا المدخل البسيط تصورات علمية كثيرة ذات تأثير شديد علي الاتجاهات نحو سوء معاملة الأطفال، وعلي اتجاهات البحوث والممارسة المهنية. وتعكس وجهة النظر هذه في الكثير من التراث النفسي لمجال سوء معاملة الأطفال. والسؤال هل طرح مفهوما من قبيل النموذج الإيكولوجي مجرد مصطلح علمي فني في رصيد المصطلحات الأخرى المستخدمة أم أن له دلالات أكثر عمقاً في بحوث ودراسات سوء معاملة الأطفال علي مختلف المستويات خاصة المستوي الوقائي؟
وفي هذه الورقة نتناول طبيعة ووظيفة النماذج العلمية، وتطور النماذج الإيكولوجية في علاقتها بمشكلة سوء معاملة الأطفال. إضافة إلي وصف فهمي الشخصي للنموذج الإيكولوجي وكيف يؤثر علي مجال البحث والممارسة في مجال سوء معاملة الأطفال.

ثالثاً طبيعة النماذج النظرية في البحث العلمي:

لا شك أن تجميع أسباب الظواهر في إطار نظري ينظم تفاعلاتها المتبادلة في إحداث هذه الظواهر أمراً قد يفوق في بعض الحالات قدرة الإنسان علي التفهم التام. ولكن الإنسان مفطور بطبعه علي الاندفاع للبحث عن أسباب مقنعة يمكن بناء عليها تفسير الظواهر أو الأحداث. وإذا حاول الإنسان في حدود قدراته العقلية المحكومة بالاندفاع الذي أشرنا إليه قد يعين أسباباً كثيرة بل ومتناقضة في نفس الوقت للظاهرة أو الحدث ومعلوم التعقد الشديد والتنوع الهائل في الظروف الشارطة للظاهرة أو الحدث الاجتماعي والسلوكي علي وجه الخصوص. ومن يفعل ذلك كمن يخطف أول وأسهل فهم قريب ويقول هذا هو السبب (Leo Tolstoy: War and Peace Part XIII, chapter I). ولتوضيح التوتر بين فطرة الإنسان للبحث عن الأسباب والتعقد الشديد للعالم الذي نعيش فيه يلمح تولستوي لطبيعة ووظيفة النماذج في البحث العلمي.
وعلي الرغم من أننا لا نملك في واقع الأمر إلا الاقتراب من الواقع أو من الحقيقة فإن النماذج العلمية تلعب دوراً حيوياً لا يمكن الاستغناء عنه في البحث العلمي والممارسة المهنية.

ويمكن استخدام مفهوم النماذج في إطار ثلاث مستويات هي: النماذج العاملة؛ الأطر النظرية؛ ووجهات النظر الخاصة.

1. النماذج العاملة Working models :

يشير جيري 1984 في سياق توضيحه لطرق الاستدلال العلمي إلي عددٍ من النماذج العاملة المختلفة المستخدمة من قبل العلماء. وربما يكون ما يعرف بنموذج الميزان أو المقياس The Scale model وهو عادة ما يكون نموذج أولي يصاغ قبل تشييد الموضوع الحقيقي – فكرة الماكيت- أو ربما يكون تمثيل بصري مرئي يصاغ استناداً لميزان أو مقياس يسمح للعلماء برؤية شيئاً ما يفوق بصورة ما قدرتهم علي الإحاطة به في الواقع. علي سبيل المثال نموذج مقياس أو ميزان واطسون وكريك لبناء الحامض النووي (DNA).

ومن أنماط النماذج العاملة الأخرى ما يعرف بنموذج التناظر أو التشابه أو المماثلة The Analogue وفيه يقارن بناء أو ظاهرة غير مألوفة ببناء أو ظاهرة معروفة. ويعد ما يعرف بفكرة جبل الثلج في تطبيقها علي ظاهرة سوء معاملة الأطفال أو غيرها من الظواهر أحد الأمثلة الشائعة لهذا النموذج. وبناء عليه يكون ما نراه يمثل جزء صغير جداً من الكل المعقد للظاهرة أو الحدث محل الدراسة والتحليل. مثل هذه النماذج مفيدة جداً بطبيعة الحال في المراحل الأولي أو المبكرة للدراسة أو البحث عندما نصارع لتفهم الأشياء غير المألوفة لنا.

إلا أن العلماء يحاولون دائماً تطوير نماذج نظرية أكثر تجريداً لتحقيق مزيد من تفهم العالم وتفسيره علي نحو أفضل وانطلاقاً من مثل هذه النماذج النظرية المجردة يقارن العلماء بين النموذج النظري والتنبؤات التي يؤسس عليه. ففي مجال التشخيص السببي لظاهرة سوء معاملة الأطفال علي سبيل المثال انطلاقاً من نموذج الضبط الاجتماعي فإن مثل هذه الإساءة تحدث عندما لا تلاحظ أو تنظم التفاعلات الاجتماعية بين الآباء والأبناء، وأن سوء معاملة الأطفال تنتشر أكثر بين الأسر المنعزلة اجتماعياً.

2. الأطر النظرية Paradigms

إذا كانت النماذج العاملة تكون الأدوات التي يعمل بها العلماء فإن الأطر النظرية تكون ورشة العمل أو المختبر الذي يعملون في إطاره. ويعرف توماس كون 1970 النماذج النظرية أو الأطر النظرية " بناء نظري ومنهجي ينظم اعتقادات ومحددات وافتراضات وإجراءات متداخلة يسمح للعلماء بالاختيار؛ التقييم؛ والنقد" (Kuhn,1970). والنموذج بهذا المعني إطار تصوري يقبله ويستخدمه كل العاملين في أحد المجالات العلمية المحددة. ومن أمثلة هذه الأطر النظرية النموذج الطبي في مقابل النموذج الاجتماعي في تفسير الإعاقة. وتصف الأطر النظرية الملاحظات والتجارب العلمية المتنوعة وتسمح في نفس الوقت بتطوير واختبار مختلف النماذج النظرية والنماذج العاملة في إطار التقبل العام للإطار التصوري أو الإدراكي.

وفي إطار التنظيم الهيراركي السابق يمكن أن يتم تطوير واستخدام النماذج النظرية والنماذج العاملة عن طريق أفراد أو جماعات من العلماء يتبنون أطراً نظرية معينة مقبولة وثابتة بالنسبة لهم. إذ أن الأطر النظرية توفر قواعد بمقتضاها تنتظم الجهود العلمية في مجال محدد. وتسمح في نفس الوقت بتحديد الأدوات التي يمكن استخدامها، إضافة إلي وضع أسس يمكن بمقتضاها الانطلاق إلي مزيد من جهود التطوير والتحسين.

وبطبيعة الحال تختلف تأويلات أو تفسيرات العلماء العاملين في مجال علمي معين الأطر النظرية المطروحة في مجالهم بطرق مختلفة. وهنا يأتي المستوي الثالث في هذا البناء الهرمي وهو وجهات النظر الشخصية.

3. وجهات النظر Worldviews

تشير وجهات النظر الخاصة إلي الطريقة التي يدرك ويقيم بها الفرد العالم الذي يعيش فيه. ومثل هذه التقييمات أو التصورات عرضة للتأثر الشديد بالثقافة والاعتقادات وبالبيئة والخبرات وبالتالي يصعب وجود وجهة نظر واحدة لدي شخصين مختلفين. ومن الطبيعي أن تتكون وجهة النظر الشخصية

للمرء من مختلف المفاهيم والاعتقادات عن العالم وربما يمكن تصوير وتمثيل بعض منها كنماذج تفسيرية تنطلق منها توجهات الفرد ورؤاه لما يحدث حوله. علي سبيل المثال تفترض الوضعية والإمبريقية وجود حقائق ثابتة قابلة للتكرار. علي عكس افتراضات ما يعرف بالبناء أو التركيب الاجتماعي التي تسمح بتنوع وجهات النظر دون أن يكون لوجه نظر معينة أولوية أو تفضيل عن الأخرى فكل وجهات النظر مقبولة في إطار السياق العام الذي ينظمها (Alderson,1998).
ووجهات النظر أكثر ثباتاً وأكثر دينامية في نفس الوقت مقارنة بالنماذج العاملة والأطر النظرية. فمن النادر أن تتغير وجهة نظر المرء بصورة مفاجئة ومن الصعب علي المرء التخلي هكذا دفعة واحدة عن وجهة نظره. وبدلاً من ذلك نجد أن وجهة نظر كل شخص تخضع لعملية تعديل كلما تمثل خبرات وأفكاراً جديدة في مخططاته المعرفية. ويتم معظم هذا التعديل دون إدراك مباشر من قبل الشخص ويكون لهذا التعديل مع ذلك تأثير دال علي طرق اقتراب العلماء وتنفيذهم أعمالهم .

رابعاً أهداف ووظائف النماذج العلمية:

علي الرغم من وجود وظائف كثيرة للنماذج العلمية إلا أن الدور الحقيقي الذي تلعبه في هذا السياق يتمثل في التركيز والاختزال. فالتنوع والتعقد الشديد لعالمنا قد يحول دون قدرة العقل الإنساني علي فهمه وتفسيره. وبالتالي فإن عملية التبسيط والاختزال مطلباً أساسياً في هذا الإطار وقد يتم هذا التبسيط أو الاختزال بتحويل البيانات الملاحظة إلي نسب أو أحجام يمكن التعامل معها، واستبعاد المعلومات غير المرتبطة، واختيار المعلومات الأكثر أهمية.
ويؤكد توماس كون علي أهمية هذه العملية لكونها تسمح للجهد العلمي بالتقدم دون معوقات ويقول كون 1970 بما يفيد هذا المعني " في ظل غياب الأطر النظرية فإن كل الحقائق مهما كانت قيمتها العلمية تتصل بتطور العلم" (Kuhn,1970). وعليه فإن الأطر النظرية تعمل علي تركيز انتباه العلماء علي نطاق محدد نسبياً من المشكلات وتسمح بدراسة واختبار هذه المشكلات بمستوي تحليل تفصيلي عميق.
ويعد التنبؤ أحد الأدوار الرئيسية للنماذج العلمية (Giere,1984) وتبدأ عملية التنبؤ منذ الشعور بالمشكلة وتحديدها. وهنا يصاغ النموذج المفسر لهذه المشكلة.
ومن خلال عملية الاستدلال والمعالجات الإحصائية يمكن التوصل إلي التنبؤات استناداً إلي نموذج نظري معين ومقارنتها بالملاحظات والتجارب المختلفة في العالم الواقعي.

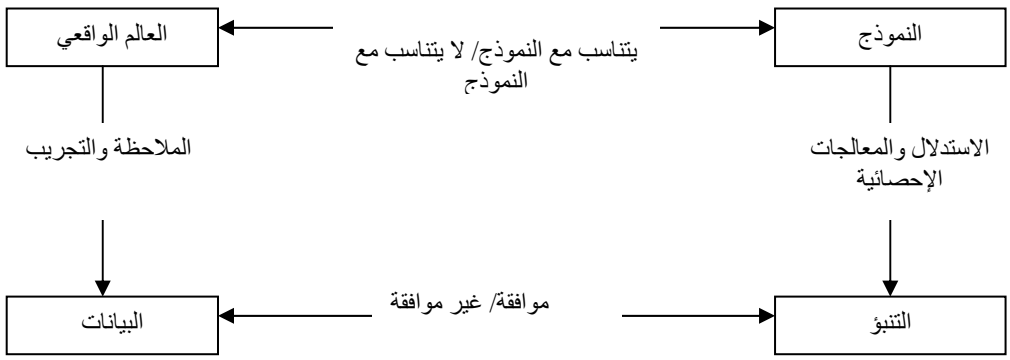

شكل رقم (1) عملية التنبؤ في النماذج العلمية (Giere,1984)

ومن المهم أن نلاحظ أن أي نموذج هو بحكم طبيعته غير كامل ولا يمكن أن يكون في الواقع تفسيراً تاماً ودقيقاً للواقع. والمحك المقبول عملياً لتحديد جودة النموذج النظري يتمثل في مدى تطابق التنبؤات التي تشتق منه مع البيانات الملاحظة.

خامساً أهمية النماذج للممارسة المهنية:

ليست النماذج النظرية علي كل حال مجالاً مقصوراً علي الباحثين أو ظاهرة خاصة بالأكاديميين ساكني الأبراج العاجية فنحن جميعاً بوعي أو بدون وعي نستخدم كل المستويات الثلاث للنماذج في أعمالنا اليومية.

فعلي مستوي النموذج العامل عند التعامل مع أسرة فإننا نميل إلي تكوين أو صياغة أفكار فيما يتعلق لماذا تتصرف هذه الأسرة بهذه الطريقة. فنحن هنا لا نعرف الصورة كاملة وكل ما يمكننا هو افتراض المتغيرات التي نري أنها أكثر أهميةً في مساعدتنا علي تفهم الأداء الوظيفي لهذه الأسرة. وبالرغم من ذلك تؤثر هذه الأفكار علي صيغ التدخل التي يمكن بها مساعدة مثل هذه الأسرة.

وبالعودة إلي واحداً من الأمثلة التي طرحت نجد أن الانطلاق مثلاً من نظرية الضبط الاجتماعي ربما نعطي وزناً نسبياً كبيراً لمتغير المساندة الاجتماعية للأم العائلة التي يعاني أطفالها من الإهمال.

وعلي مستوي أوسع يوجد أطر نظرية مختلفة يؤسس عليها كل عملنا سواء علي مستوي البحث أو الممارسة المهنية في مجال الوقاية أو العلاج. وأخيراً علي المستوي الفردي نحن نحضر رؤانا الشخصية عن العالم إلي عملنا ولا نستطيع تجنب ذلك بل نكون في واقع الأمر أغبياء إذا أنكرنا ذلك.

سادساً النماذج النظرية المفسرة لسوء معاملة الأطفال:

أصبحت ظاهرة سوء معاملة الأطفال موضوعاً للاهتمام الشعبي والدراسة والتدقيق العلمي العميق منذ العقد السابع من القرن العشرين. وبينما تفيد الشواهد التاريخية أن سوء معاملة وإهمال الأطفال ليست ظاهرة جديدة فإنها لم تدرس قبل هذا التاريخ بصورة علمية منضبطة (Bittner&Newberger,1981).

وفيما تعد الورقة الرئيسية في هذا الإطار يصف كيمب وآخرون 1962 ما أطلقوا عليه مصطلح (متلازمة الطفل المنهك ضرباًBattered Child Syndrome)، إلا أن هذا الوصف أسس علي وجهة النظر أو التقليد الطبي.

ومعظم النماذج النظرية المبكرة في مجال التشخيص السببي لسوء معاملة الأطفال كانت تنظر إليها بوصفها ظاهرة حتمية. ونتيجة التوجه التام نحو تفهم المتغيرات السببية لهذه الظاهرة رؤى أن المطلب الأساسي لوقاية الأطفال من سوء المعاملة والإهمال يتمثل في تحديد مدى احتمالات تعرض الطفل لخطر سوء المعاملة. لذا تركزت جهود الباحثين علي تعريف وتحديد احتمالات خطر التعرض لسوء المعاملة وكانت الأدوات المستخدمة في ذلك وصفية واسترجاعية في الأساس .

وعلي الرغم من البساطة الشديدة لهذا النموذج إلا أنه سمح بالكثير من التقدم في مجال تفهم احتمالات مخاطر التعرض لسوء المعاملة خلال فترة قصيرة نسبياً.

ومن نقطة البداية هذه تطور اتجاهان أساسيان للبحث في هذا المجال (Pelton,1985;Erchak,1981).

- الأول النموذج السيكودينامي: والذي وينظر فيه إلى سوء المعاملة علي أنها اضطراب نفسي للفرد(المسيء ، والمساء إليه). أو بمعني أكثر تحديداً سوء المعاملة اضطراب في طبيعة ومسار علاقات التفاعل الاجتماعي المتبادل بين المسيء والمساء إليه. وأفضي هذا النموذج إلي تفهم الخصائص الشخصية والديموجرافية للأفراد التي تجعل الطفل أكثر عرضه لخطر سوء المعاملة(Spinetta&Rigler,1972). وقد أعطي في هذا النموذج اهتماماً خاصاً بالأمهات في محاولة لتعريف وتحديد الأمهات الأكثر احتمالاً لممارسة سوء المعاملة (Altemeier et al.1984;Egeland&Brunnquell,1979) . وحاول بعض الباحثين انطلاقاً من النموذج السيكودينامي دراسة وفحص الجوانب التفاعلية الدينامية لطبيعة ونوعيه العلاقات الاجتماعية المسيئة للطفل (Erchak,1981).

- الثاني النموذج الاجتماعي Sociological model يؤكد في هذا النموذج أن المتغيرات الاقتصادية الاجتماعية الخارجية تؤثر علي احتمالات تعرض الأطفال لسوء المعاملة والإهمال (Smith,Hanson&Noble,1974) .وقد مكن هذا النموذج من تفهم تأثير الفروق الطبقية والكثير من المتغيرات الأخرى مثل البطالة، الأوضاع السكنية السيئة، والافتقاد إلي الخدمات الاجتماعية والصحية في زيادة احتمالات التعرض لسوء المعاملة والإهمال.

وحاول باحثون عديدون التوفيق بين النموذجين السابقين في نموذج اجتماعي-نفسي Social-Psychological model (Gelles,1973, Bittner &Newberger,1981). ويوضح الشكل رقم (2) نموذج لإحدى محاولات تضمين أبعاد العملية التي يفضي إلي حوادث سوء معاملة الأطفال

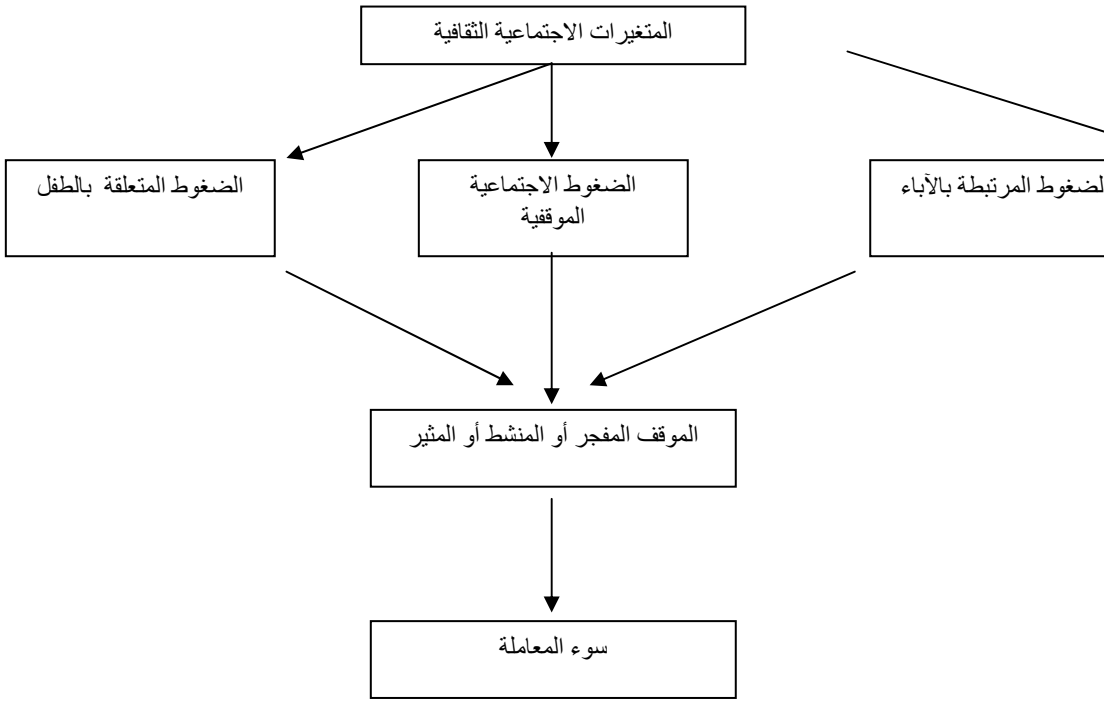

شكل رقم (2) النموذج المركب لفهم سوء معاملة الأطفال(Bittner&Newberger,1981).

ويبدو أن التطورات الهامة في مجال فهم سوء معاملة الأطفال وإهمالهم قد جاءت من تبني النموذج الإيكولوجي في تفسير هذه الظاهرة (Garbarino,1985,Belsky,1980,1993, Garbarino&Collins,1999). وقد أسس هذا النموذج علي تصورات المدخل الإيكولوجي لنمو الطفل الذي ابتدأ صياغته برونفينبرينير 1979

(Bronfenbrenner,1979). وأدي تبني هذا النموذج إلي تحولات هامة في فهم المتخصصين لطبيعة ظاهرة سوء المعاملة ولمداخل الممارسة المختلفة. وكما يشير بيلسكي 1980 فإن التنوع في التصورات المرتبطة بالتشخيص السببي لظاهرة سوء معاملة الأطفال أدي إلي تخليق جدالاً علمياً صحياً بين المتخصصين. مما أدي إلي تزايد الإلحاح علي إدراك الطابع المعقد شديد التداخل متعدد الأبعاد لأسباب سوء المعاملة (Belsky,1980)

ويزودنا المدخل الإيكولوجي بمخطط تصوري منضبط يمكن بمقتضاه نظم مختلف جوانب أو أبعاد ظاهرة سوء معاملة الأطفال والمعلومات المتجمعة عن هذه الأبعاد في مخطط عام يسهل التناول النظري والتطبيقي لهذا المجال إضافة إلي إحداث نوع من التوفيق والتكامل بين مختلف التصورات النظرية العاملة في الميدان.

ويبدو أن التطورات الهامة في مجال فهم سوء معاملة الأطفال وإهمالهم قد جاءت من تبني النموذج الإيكولوجي في تفسير هذه الظاهرة (Garbarino,1985,Belsky,1980,1993,Garbarino&Collins,1999). وقد أسس هذا النموذج علي تصورات المدخل الإيكولوجي لنمو الطفل الذي ابتدأ صياغته برونفينبرينير 1979 (Bronfenbrenner,1979). وأدي تبني هذا النموذج إلي تحولات هامة في فهم المتخصصين لطبيعة ظاهرة سوء المعاملة ولمداخل الممارسة المختلفة. وكما يشير بيلسكي 1980 فإن التنوع في التصورات المرتبطة بالتشخيص السببي لظاهرة سوء معاملة الأطفال أدي إلي تخليق جدالاً علمياً صحياً بين المتخصصين. مما أدي إلي تزايد الإلحاح علي إدراك الطابع المعقد شديد التداخل متعدد الأبعاد لأسباب سوء المعاملة (Belsky,1980)

ويزودنا المدخل الإيكولوجي بمخطط تصوري منضبط يمكن بمقتضاه نظم مختلف جوانب أو أبعاد ظاهرة سوء معاملة الأطفال والمعلومات المتجمعة عن هذه الأبعاد في مخطط عام يسهل التناول النظري والتطبيقي لهذا المجال إضافة إلي إحداث نوع من التوفيق والتكامل بين مختلف التصورات النظرية العاملة في الميدان.

سابعاً ما هو النموذج الإيكولوجي؟

تتمثل أسس النموذج الإيكولوجي في أن سوء معاملة الأطفال ظاهرة متعددة الأبعاد وتسهم متغيرات متنوعة فيها وتعمل هذه المتغيرات علي مستويات متعددة: مستوي الفرد (المسيء؛المساء إليه)؛ مستوي الأسرة التي تحدث فيها الإساءة أو التي ترتفع فيها احتمالات إساءة معاملة الأطفال؛ مستوي المجتمع المحلي الذي تعيش فيه الأسرة؛ والمستوي الاجتماعي الثقافي العام للمجتمع؛ إضافة إلي المحددات التي المتضمنة في كل مستوي من هذه المستويات. ويوضح الشكل رقم (3) مستويات التحليل الأربع هذه .

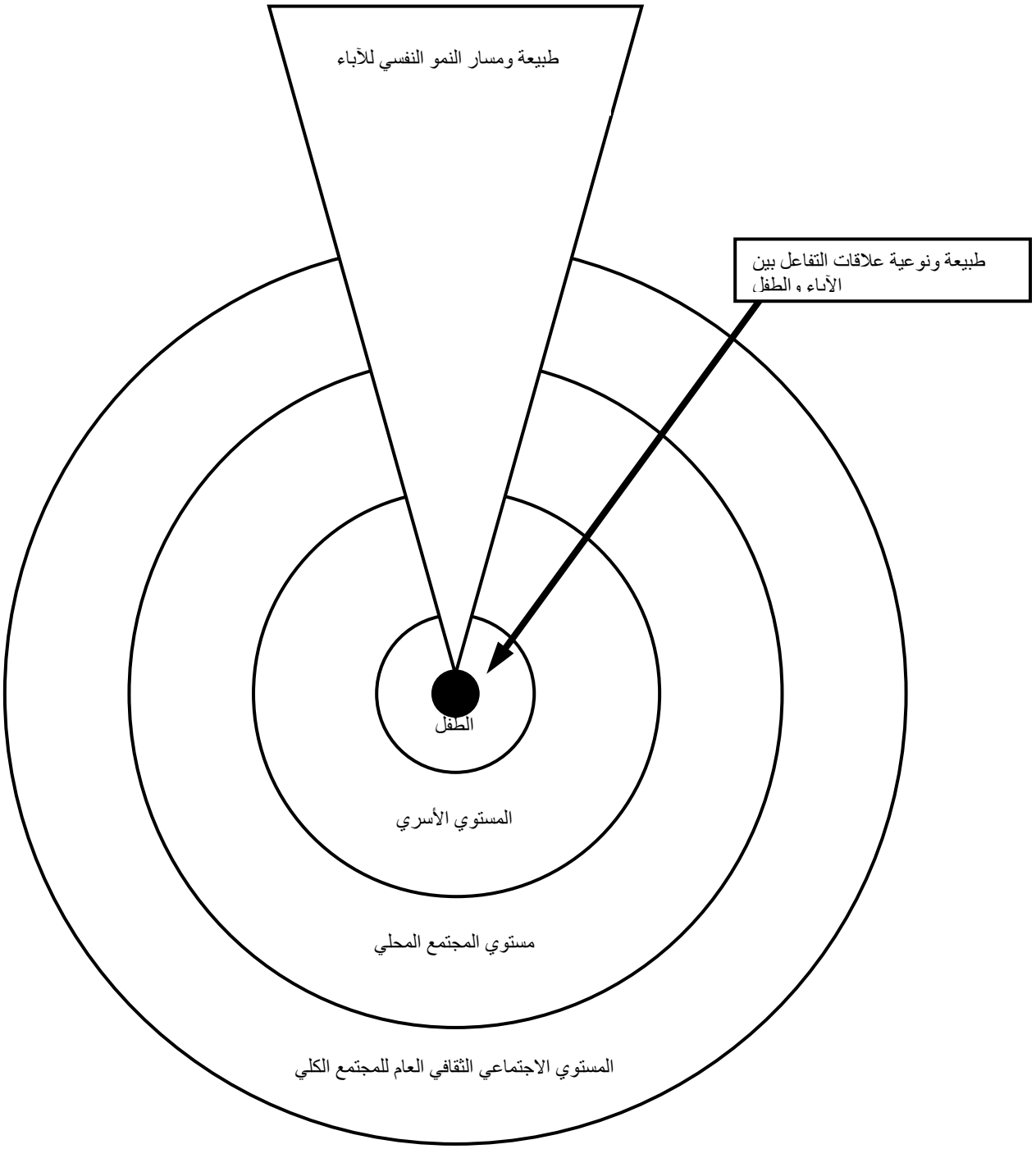

شكل رقم (3) النموذج الإيكولوجي في تفسير سوء معاملة الأطفال.

ويوضح الجدول التالي هذه المستويات والمتغيرات المتضمنة في كل مستوي.

جدول رقم (1) المتغيرات المتضمنة في مستويات النموذج الإيكولوجي.

مستوي النمو الفردي	المستوي الأسري.	مستوي المجتمع المحلي	المستوي المجتمعي العام
خلفية ونمو الآباء ومقدمي الرعاية.	*أسرة الطفل الحالية والسياق الأسري الذي يعيش فيه.	النظم الاجتماعية التي تعيش في إطارها الأسرة.	المعتقدات القيم الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع.
*عمر الوالدين. *المستوي التعليمي. *الخلفية الاجتماعية. تاريخ الإساءة إلي الطفل. *خبرات الطفولة. *الشخصية. *التاريخ المرضي. *تعاطي المخدرات.	*الأصل العرقي. *صحة الطفل. *الحالة السلوكية للطفل. *الحالة المزاجية للطفل. *وجود/عدم وجود إعاقة لدي الطفل. *العلاقات بين الزوجين. *العنف الأسري. *الأشقاء. *الاتجاهات الوالديه. *أساليب المعاملة الوالديه.	*الطبقة الاجتماعية. *الأوضاع السكنية. *مستوي الدخل. *شبكة العلاقات الاجتماعية. *المساندة الاجتماعية. *فرص الالتحاق بالحضانة ورياض الأطفال والمدارس الابتدائية.	*طبيعة ودور الأسرة. *الاتجاهات والمعتقدات والتصورات المرتبطة بالأطفال. *مسئوليات رعاية وتربية الأطفال. *العدوان المجتمعي.

وقد تناول بيلسكي 1980 هذه المستويات بالتفصيل علي النحو التالي:

- المستوي الارتقائي العام للآباء Ontogenic development أو كيف ينمو الأباء ليتصرفوا بطريقة مسيئة للأطفال. ويتضمن هذا المستوي من التحليل طبيعة مرحلة الطفولة لدي الأباء وخبرات الآباء المبكرة في بداية سنوات الرشد، إضافة إلي تصوراتهم واستجاباتهم لهذه الخبرات. ويمكن من خلال تحليل هذا المستوي تفهم ما يعرف بظاهرة توارث أو انتقال ظاهرة سوء معاملة الأطفال بين الأجيال.
- المستوي الأسري (مستوي التحليل للنظام الأصغر The Micro-system)

أي مستوي تحليل السياق الأسري والمنزلي الحالي الذي يعيش فيه الطفل ولا يتضمن هذا المستوي الخصائص المكانية والمادية لطبيعة السياق الذي يعيش فيه الطفل فقط بل يتضمن كذلك مختلف صيغ التفاعل بين أعضاء الأسرة سواء كانت هذه التفاعلات تتصل بالطفل بشكل مباشر أو غير مباشر إضافة إلي طبيعة تصور أو إدراك الطفل لبيئة التفاعل هذه. ومع تقدم الطفل في العمر تتسع بطبيعة الحال دائرة تفاعل الطفل مع الوسط الذي يعيش فيه ليشمل الأصدقاء والأقران سواء في المدرسة أو في مواقف اللعب إضافة إلي الكثير من الكبار ذوي العلاقة المباشرة بالطفل مثل الأقارب وغيرهم. وعلي الرغم من أن برونفينبرينر يضمن مثل هذه العلاقات الواسعة في إطار ما يسمي بالمستوي المتوسط Meso-system (Garbarino&Collins,1999). فإن الكثير من الباحثين يفضلون تضمينها في إطار المستوي الأصغر أي مستوي تحليل السياق الأسري الذي يعيش فيه الطفل.

- المستوي الخارجي The Exo-system

أي مستوي النظم الاجتماعية المحيطة بالأسرة. وعلي الرغم من أن هذه النظم لا تحتوي الطفل النامي كمشارك فعال فيها فإن لها تأثيرات مباشرة وغير مباشرة عليه. علي سبيل المثال شبكة أصدقاء الآباء؛ وموقف العمل؛ والجيران.

- المستوي العام The Macro-system

ويتضمن المعتقدات والقيم الثقافية السائدة في المجتمع. ويعكس هذا المستوي مدى اتساق أنماط السلوك مع هذه المعتقدات والقيم، وطبيعة بناء وتنظيم المجتمع، والاتجاهات والمعتقدات الكامنة وراء أنماط السلوك هذه.

ويجب أن لا ينظر إلي البيئة العامة لسوء معاملة الأطفال بوصفها نموذج ثابت بل إن هذا النموذج يفرض علي العملية الديناميه لنمو الطفل. وتتضمن بيئة النمو الإنساني الدراسة العلمية للتعديلات المتبادلة بين الكائن الحي النامي والتغير الحادث في مواصفات أو خصائص الموقف الحالي الذي يعيش فيه هذا الكائن. وتتأثر هذه العملية بالعلاقات بين هذه المواقف وبالسياقات الأوسع التي تحتوي هذه المواقف (Bronfenbrenner,1979) .

ثامناً استخدامات النماذج الإيكولوجية في البحث العلمي في مجال سوء معاملة الأطفال:

يفترض أن يساعد النموذج الإيكولوجي الباحثين في التوفيق بين كل المتغيرات التي يعرف أن لها علاقة ما بسوء معاملة الأطفال إضافة إلي توجيه المزيد من البحوث الإمبريقية لكونه يمكن الباحثين من توليد تنبؤات متنوعة قابلة للتحقيق العلمي فيما يتعلق بالعمليات الديناميه التي تحدث وفق لها ظاهرة سوء معاملة الأطفال (Belsky,1980).

وللنموذج الإيكولوجي إذن تطبيقات أو دلالات منهجية كثيرة إذ له تأثير مباشر علي النماذج العاملة المستخدمة في البحث. ويري بيلسكي 1980أنه باستخدام هذا النموذج يمكن جمع بيانات علي مستويات مختلفة ثم تنظيمها للتوصل إلي مفاهيم ذات معني واستخدام كافة الطرق الإحصائية. وعليه من غير المناسب إذن أن نحاول تفسير سوء معاملة الأطفال وفق مصطلحات فردية أو وفق مستوي تحليل واحد. وبالتالي يتطلب الأمر استبدال المداخل النظرية الوصفية البسيطة بفنيات متعددة المتغيرات تصاغ في ضوء مدخل نظري إحصائي متكامل. ويضمن النموذج الإيكولوجي عمقاً في التحليل النظري والإحصائي لظاهرة سوء معاملة الأطفال يتجاوز مجرد اكتشاف وتحديد مختلف المتغيرات المؤدية إليها إلي - إضافة إلي ذلك - استكشاف طبيعة واتجاهات التفاعل بين هذه المتغيرات داخل وبين المستويات الأربع السابق الإشارة إليها. علي سبيل المثال بدلاً من أن نعلن ببساطة أن تعرض الآباء لسوء المعاملة وهم في طفولتهم يزيد من مخاطر سوء معاملة الأطفال في الجيل التالي يمكن أن نفحص بدقة المتغيرات الثقافية والبيئية التي تؤدي بالآباء المساء معاملتهم وهم أطفال إلي الاستجابة لأطفالهم بطريقة مسيئة.

تاسعاً تأثير النموذج الإيكولوجي علي ممارسات وقاية الأطفال من سوء المعاملة:

تتضح أهمية النموذج الإيكولوجي بالنسبة للممارسة المهنية فيما يتعلق بالتقييم والقياس علي وجه الخصوص . فكما سبق الإشارة في إطار التقييم والقياس فإن تفهم طبيعة ودلالة العلاقات بين الآباء والأبناء يعد جزءاً أساسياً لتطبيق الخدمات الاجتماعية إلا أن هذه الخدمات أيضاً تتأثر بتفهم الممارسين لما تحدثه المتغيرات البيئية علي قدرة الآباء علي الاستجابة لاحتياجات الأطفال (Doh,1999).

وبتبني المدخل الإيكولوجي يؤكد علي أن كل المستويات مهمة وبالتالي يجب تقييمها للتوصل إلي صورة كاملة عن طبيعة وسياق وديناميات واقعة سوء المعاملة. فعلي مستوي الحالة الفردية يمكن أن يزودنا المدخل الإيكولوجي بإطار مفيد لفهم التفاعلات بين مختلف المتغيرات التي ربما تفضي إلي سوء المعاملة وضمان عدم تجاهل أي من المتغيرات المهمة.

أما علي المستوي الاستراتيجي الأوسع مدي يمكن أن يزودنا المدخل الإيكولوجي بإمكانيات لتحديد كافة العوامل الاجتماعية التي ربما تسهم في سوء معاملة وإهمال الأطفال. فقد كان من النادر أن ينظر الخبراء المهنيين المتخصصين في مجال رعاية وعلاج ضحايا سوء المعاملة والإهمال إلي ما وراء الحالة من

عوامل بنائية ربما تكون لها علاقة بتعرضها لسوء المعاملة والإهمال علي الرغم من أن التعامل مع هذه العوامل ربما يقي من تعرض الأطفال لمثل هذه المعاملة.
وإذا أخذ بالمستويات المختلفة للنموذج الإيكولوجي في التفسير وبالعوامل المتعددة داخل كل مستوي في الاعتبار يصبح من وجهة نظر بحثية من المستحيل إعزاء سوء المعاملة والإهمال إلي عامل واحد أو حتى إلي مجموعة من العوامل. ولهذا التحذير دلالات هامة بالنسبة لممارسات هيئات رعاية ووقاية الأطفال خاصة في ظل الاعتقاد المؤسس علي هذا النموذج والذي مفاده بأنه لا يوجد حلاً واحدًا لسوء العاملة. وبالتالي التشجيع علي صياغة برامج تدخل وقائي أو علاجي متعدد المحاور لتستهدف كل مستويات النموذج الإيكولوجي في التفسير. وقد تتوجه بعض برامج التدخل إلي الأسرة المسيئة بالتركيز علي طبيعة ونوعية التفاعلات الأسرية المتبادلة لكنها قد تأخذ في اعتبارها أيضًا خلفية وتاريخ الآباء وكيف يؤثر علي سلوكياتهم الحاضرة، وتأثيرات الحرمان من الأم، وتأثير التعارض بين متطلبات العمل ومتطلبات الاضطلاع بشئون المنزل بالنسبة للأم، إضافة إلي تبيان تأثير المعايير الثقافية علي طريقة إدراك وتقييم الآباء لأطفالهم.
ومن غير المنطقي بناء علي ذلك أن يقال أن مدخل تدخل معين يقدم إجابات عن كل حالات التعرض لسوء المعاملة وبالتالي نحن في حاجة ماسة إلي توسيع أفقنا لتضمين مختلف استراتيجيات التعامل مع سوء المعاملة والإهمال بناء علي الفهم التام والشامل للعوامل المرتبطة بكل حالة إساءة معاملة علي حدة.
وينطبق نفس المبدأ علي الوقاية من سوء المعاملة والإهمال. إذا كان هناك عوامل متعددة تسهم في تعرض الأطفال لسوء المعاملة والإهمال فإن مجال الوقاية يجب أن يستهدف مختلف المستويات. فإدراك عوامل الخطورة سواء كانت متعلقة بخلفية الآباء وتاريخهم السابق، مؤشرات الحرمان الاجتماعي الاقتصادي، العزلة الاجتماعية، بناءات أسرية معينة مثل الأسرة وحيدة العائل، الثقافات الفرعية التي تتضمن اتجاهات مهينة للأطفال ومحتقرة لهم الخطوة الأولي والأكثر أهمية في واقع الأمر في وقاية الأطفال من سوء المعاملة والإهمال.

عاشراً هل النماذج الإيكولوجية في تفسير سوء المعاملة والإهمال كافية؟

من غير المقبول أن يدعي أن النماذج الإيكولوجية في تفسير سوء معاملة وإهمال الأطفال تقول الكلمة النهائية في هذا الصدد. فعلي الرغم من أن هذه النماذج طرحت في العقد الثامن من القرن العشرين مازالت إلي حد بعيد مفاهيم جديدة ولم تجري إلا أعمالاً إمبريقية قليلة انطلاقًا من افتراضاتها الرئيسية في التفسير مثل دراسات كوتش وآخرون 1995، 1997 (Kotch,etal,1995,1997). لذا مازال أمامنا وقتًا طويلاً قبل أن نقول إلي أي مدى توفر لنا النماذج الإيكولوجية الصورة الكاملة عن ظاهرة سوء معاملة وإهمال الأطفال. وعلي الرغم من أني أعتقد أن مثل هذه النماذج تقدم لنا الفهم الأكثر شمولاً لظاهرة سوء معاملة وإهمال الأطفال لدي بعض الملاحظات العامة عن هذه النماذج منها:

1. قد يحول التعقيد الشديد لهذه النماذج دون استخدامها علي نطاق واسع في البحوث أو الممارسة.
2. أعتقد أنه من الخطورة أن تفسر هذه النماذج بمعني جامد أو ثابت. فالإطار العام لهذه النماذج يوفر تصورًا عامًا لقياس العوامل المتعددة المؤدية إلي سوء المعاملة والإهمال في لحظة زمنية معينة. ولإضفاء الطابع الدينامي من المهم أن يتم التعامل مع الحالة بناء علي هذه النماذج في سياق الصيرورة أو التغير الذي يطال مختلف مستويات القياس والتحليل.
3. قد يتعذر استناداً إلي هذه النماذج نظم كافة الأفعال المرتبطة بسوء المعاملة والإهمال.
4. يبدو أن للنماذج الإيكولوجية نظرة حتمية للعالم بمعني أن سوء المعاملة والإهمال يتعرض لها الأطفال بالضرورة حال توافر خصائص معينة لدي الآباء، أو في المجتمع والثقافة، أو بالنسبة للتفاعلات الأسرية. وبالتالي لا بد من التحول من هذه النظرة الحتمية إلي النظرة الاحتمالية بمعني أن توافر عوامل معينة يزيد أو يقلل من احتمالات تعرض الأطفال لسوء المعاملة والإهمال.

5. من المفاهيم المهمة التي لا يجد لها المرء مكانًا في النموذج الإيكولوجي (أو في أي نموذج علمي آخر علي ما أعتقد) هو مفهوم الإرادة الحرة أو حرية الاختيار. فإذا تم تضمين هذا المفهوم في هذا النموذج لأمكن إضافة بعدًا أخلاقيًا لهذه المشكلة (مشكلة سوء معاملة وإهمال الأطفال) بمعني أن الأشخاص الذين يتواجدون في البيئة الإيكولوجية التي يتوافر فيها العوامل الخاصة بمستويات النموذج الإيكولوجي أمام اختيارين إما ارتكاب سلوكيات سوء المعاملة والإهمال وإما عدم ارتكاب هذه السلوكيات.

References

(1) Alderson P. (1998) The importance of theories in health care, British Medical Journal ,317: 1007-1010

(2) Altemeier WA. O'Connor S. Vietze P. Sandler H. Sherrod K.. (1984) Prediction of child abuse: a prospective study of feasibility. Child Abuse & Neglect , 8: 393-400

(3) Belsky J. (1980) Child maltreatment. An Ecological integration. American Psychologis 35: 320 - 335

(4) Belsky J. (1993) Etiology of child maltreatment: a developmental-ecological analysis. Psychological Bulletin 114: 413-434

(5) Bittner S, Newberger EH. (1981) Pediatric understanding of child abuse and neglect. Pediatrics in review 2: 197-207

(6) Brofenbrenner U. (1979) The ecology of human development Cambridge, MA: Harvard University Press.

(7) Department of Health. (1999) Framework for the assessment of children in need and their families (consultation draft). London: Department of Health. <**http://www.doh.gov.uk/quality.htm**>

(8) Egeland B, Brunnquell D. (1979) An at-risk approach to the study of child abuse: some preliminary findings. Journal of the American Academy of Child Psychiatry 18: 219-235

(9) Erchak GM. (1981) The escalation and maintenance of child abuse: a cybernetic model. Child Abuse and Neglect 5: 153-157

(10) Garbarino J (1985) in Pelton L (Ed.) The Social Context of Child Abuse and Neglect. Human Sciences Press Inc.

(11) Garbarino J., Collins CC. (1999) Child Neglect: The family with a hole in the middle. In H. Dubowitz (Ed.) Neglected children: research, practice, and policy. Thousand Oaks, CA: Sage publications.

(12) Gelles R. (1973) Child abuse as psychopathology: A sociological critique and reformulation. American Journal of Orthopsychiatry 43: 611-621

(13) Giere (1984) Understanding Scientific Reasoning 2nd Edition. New York: Holt, Rinehart & Winston

(14) Kempe CH, Silverman FN, Steele BF, Droegemueller W, Silver HK. (1962) The battered child syndrome. Journal of the American Medical Association 181: 17-24
(15) Kotch JB. Browne DC. Ringwalt CL. Stewart PW. Ruina E. Holt K. Lowman B. (16) Jung JW. (1995) Risk of child abuse or neglect in a cohort of low-income children. Child Abuse & Neglect 19: 1115-1130
(17) Kotch JB. Browne DC. Ringwalt CL. Dufort V. Ruina E. Stewart PW. Jung JW. (1997) Stress, social support, and substantiated maltreatment in the second and third years of life. Child Abuse & Neglect 21: 1025-1037
(18) Kuhn TS (1970) The Structure of Scientific Revolutions, 2nd Edition. Chicago: The University of Chicago Press.
(19) National Commission of Inquiry into the prevention of child abuse. (1996) Childhood Matters London: The Stationary Office.
Pelton L (Ed.) (1985) The Social Context of Child Abuse and Neglect. New York: Human Sciences Press Inc.
(20) Smith MS, Hanson R, Noble S. (1974) Social aspects of the battered baby syndrome British Journal of Psychiatry 125: 568-82
(21) Spinetta JJ, Rigler D. (1972) The child-abusing parent: a psychological review. Psychological Bulletin 77: 296-304